

مقاربة حول النخب والمتقنين الجزائريين خلال الحقبة الكولونiale الأولى 1850-1912

أ.د. مهديد إبراهيم

جامعة وهران 1 - أحمد بن بلة

البريد الإلكتروني: mehdid31hist@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2017/02/12

تاريخ الاستلام: 2017/01/10

الملخص:

كانت الطبقة المثقفة الجزائرية خلال العقود الأولى من القرن العشرين نتاج الثقافة الفرنسية المحضة (والتي مثلت التيار الليبرالي للمطالب لاحقا). فرقة ذلك هناك صنف مثقف ومتشبع بالثقافة العربية الإسلامية أو مزدوجي اللغة تمثل في عناصر وأطر واعية قادت حركة النهضة في الجزائر منذ نهاية القرن الماضي وصولا إلى الاحتفال الاستعماري المؤي لاحتلال الجزائر وعقد الثلاثينيات وذلك على المستوى الثقافي والسياسي. وكان لوجود هذه الفئة الثانية من المثقفين، داخل تلك النهضة نتائج حاسمة، تمثلت في خلق توازن في القوى السياسية داخل الحركة الوطنية الجزائرية، بل وقلب الميزان لصالحها خصوصا بعد نجاح وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة خلايا نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري من بعد، داخل ربوع ونواحي الوطن. الكلمات الدالة:

الطبقة المثقفة الجزائرية - النخب - الحقبة الكولونiale - مزدوجي اللغة - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

العنوان بالإنجليزية:

An Approach on the Algerian Elite and Intellectuals during the First Colonial Period, 1850-1912

Abstract:

The Algerian intelligentsia during the first decades of the twentieth century was the product of pure French culture (which later represented the liberal trend of demands). In addition to this, there is a cultured and saturated cult of Arab-Islamic

culture or bilingualism represented in the elements and frameworks of awareness led by the Renaissance movement in Algeria since the end of the last century to the centenary colonial celebration of the occupation of Algeria and the 1930s, on the cultural and political level. The existence of this second category of intellectuals, within that renaissance, had decisive results, namely, the creation of a balance in the political forces within the Algerian national movement, and even turned the balance in their favor, especially after the success and establishment of the Association of Algerian Muslim Scholars with the cells of the North African Star and the Algerian People's Party Nationalities and aspects of the homeland.

Key words:

Algerian intelligentsia - elites - colonial era - bilingual - Algerian Muslim Scholars Association.

كخطوة أولى وتسهيلا للطرح والنقاش، علينا أن نسجل نقطة جوهرية وحساسة تتعلق بالطبقة المثقفة الجزائرية خلال العقود الأولى من القرن العشرين -بل وقبله بقليل-، إذ لا يجب حصر فئاتها في نظرنا واصطفاء دورها في "نخبة" كانت نتاج الثقافة الفرنسية المحضة (والتي مثلت التيار الليبرالي للمطالب لاحقا). فرفقة ذلك هناك صنف مثقف ومتشبع بالثقافة العربية الإسلامية أو مزدوجي اللغة تمثل في عناصر وأطر واعية قادت حركة النهضة في الجزائر منذ نهاية القرن الماضي وصولا إلى الاحتفال الاستعماري المثوي لاحتلال الجزائر وعقد الثلاثينيات وذلك على المستوى الثقافي والسياسي. وكان لوجود هذه الفئة الثانية من المثقفين، داخل تلك النهضة نتائج حاسمة، تمثلت في خلق توازن في القوى السياسية داخل الحركة الوطنية الجزائرية، بل وقلب الميزان لصالحها خصوصا بعد نجاح وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة خلايا نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري من بعد، داخل ربوع ونواحي الوطن.

- سيرورة حركة المثقفين الجزائريين

فالمثقفون (Intellectuals) والنخبة (L'Elite) والمتطورون (Evolués) كلها أسماء تراكمت في كثير من الكتابات والأدبيات المعاصرة داخل الهيستوغرافية الحاضرة، فقلما لوحظت مميزات إحدى الفئات وخصوصيات الأخرى داخل التعريفات العديدة بالنسبة لهذه المفاهيم. وإذا كان مصطلح "النخبة"

قد انتشر في القرن العشرين خاصة ليعطي نشرات الصحف وغيرها « فإن الصحافة الفرنسية بجميع أشكالها وألوانها هي التي أطلقت اسم "النخبة" على جماعة من الناس، تمييزاً لهم عن بقية أفراد المجتمع. وذلك تشجيعاً لهم لمواصلة السير في طريق الإدماج والمطالبة بالجنسية الفرنسية، لأنهم الوحيدون القادرون على التأثير على زملائهم وإخوانهم كونهم يملكون قوة فكرية وثقافية تجعلهم في الصف الأول من المجتمع بل وفي طليعته، وبهذا يصبحون بحق الوسطاء النشيطين والفعلبيين بين المجموعتين من المتباعدين ثقافياً ودينياً »⁽¹⁾.

المعروف تاريخياً أن دور المدرسة الفرنسية كان أساسياً في تكوين فئة من "المتدربين" تربت تربية فرنسية خالصة وفي محيط وبيئة فرنسية بعيدة عن واقعها⁽²⁾، لم تنل من ثقافتها العربية الإسلامية إلا النذر القليل، الشيء الذي جعلها لا تميز بين ثقافتها وثقافة المستعمر. هكذا عملت هذه المؤسسة التعليمية لخلق "نخبة" مثقفة وتهيئتها، تكون قادرة على نشر أفكار التقدم الفرنسي وقضائه، « بصفتها برجوازية محافظة ترتبط بفرنسا أكثر فأكثر وتميز الطريق المتبع تحت السيطرة »⁽³⁾ الفرنسية. فالمدرسة الفرنسية كانت تبحث في هذا الاتجاه على إقناع الجزائريين بكافة الوسائل بعظمة وقوة فرنسا -خوفاً من تحول التيار الوطني ضدها- فوضعت الغاية التي هدفت إليها "أن الهدف المنشود ليس تكوين موظفين خاصين ولا تحضير مدرسين للتعليم العمومي، وإنما لتكوين رجال يساعدوننا على تحويل المجتمع العربي وفق متطلبات حضارتنا"⁽⁴⁾.

وحتى يؤدي هؤلاء "الوسطاء" دورهم -أو واجبهم- رأى الأوروبيون أن تكون « الدراسات قوية بهدف محاربة الأعداء الذين يعترضونها فيما بعد، ويجب أن نركز الجهود كلها لجعل هؤلاء السكان مشابهين إلينا، متحمسين لحضارتنا أو على الأقل لجعلهم يرغبون في التقرب إلينا شعوراً وفكراً »⁽⁵⁾. فالإدارة الفرنسية لم تكن تنوي تكوين موظفين صغار فقط وفقاً لضرورات الواقع الاستيطاني -الاستعماري ولكنها فكرت كذلك للتأثير على المجتمع المسيطر عليه من خلال هؤلاء المساعدين النخبويين، قصد « تحويل المجتمع الإسلامي، ومع الزمن حمله على تعلم لغتنا وقضائنا وعاداتنا وتقاليدينا، وكذلك على انتقائنا وخيارنا الديني أم الفلسفي »⁽⁶⁾. أمام هذه المعطيات الاجتماعية التاريخية لتهيئة النخبة، علينا أن نقر أنها تكونت في المدارس "العربية الفرنسية" والثانويات التي أنشئت بعد 1850 وغيرها من

المعاهد الفرنسية التي منحت هذه "النخبة" مدخلا إلى الثقافة الأوروبية كمدرسة "تكوين المعلمين" ببوزريعة.

فالطرح يوحي بأننا بصدد تمييز شريحة من المجتمع الجزائري وهي "الشريحة النخبوية" ذات الثقافة الفرنسية والتي انبهرت بالحضارة الفرنسية وراهنّت على الفرنسية واقتنعت بضرورتها وإمكاناتها. ويشمل هذا الصنف العناصر التي تجنست بالجنسية الفرنسية وتخلت عن أحوالها الشخصية - حسب الفقه الإسلامي - أو ما اصطلح على تسميتهم بالإدماجيين⁽⁷⁾، فهي فئة متميزة لا هي جزائرية بثقافتها وفكرها ولا هي فرنسية بعرقها وجنسها ومن هنا وقعت عرضة لازدراء المجتمع الجزائري، فقد نعتوا "المرتدين" وعوملوا بدون احترام. ومن هنا اعتبرت جماعة النخبة أنفسهم "خارجين عن القانون" بالنسبة إلى كلا المجموعتين، الجزائرية والفرنسية⁽⁸⁾. هاته الجماعة هي التي رفعت في نضالها شعار التقارب والتفاهم بين المجموعتين المذكورتين.

وفي خطوة أخرى نود مقارنة الصنف الثاني من المثقفين الجزائريين وهي الطبقة المتشعبة بالثقافة العربية الإسلامية أو هي مزدوجة اللغة والثقافة والوعي بالهوية الوطنية. وهو صنف المتعلمين الذين استفادوا من فرص التعليم الفرنسي وإن بدرجات متفاوتة. لكنهم ظلوا متشبثين بمظاهر الشخصية الوطنية حريصين على عدم الانفصال عن قاعدتهم الاجتماعية، ويشمل هذا التمسك بالشخصية العربية الإسلامية مظاهر مختلفة اجتماعيا وفكريا وسياسيا أحيانا أخرى، تمثلت الأولى في الحفاظ على طابعهم العربي الإسلامي في لباسهم وسلوكهم داخل المدرسة وخارجها، بينما تمثل تمسكهم الفكري والسياسي في تأييد الحركات الإصلاحية الدينية، أي تأييد حزب سياسي وطني⁽⁹⁾، قد يظهر في المستقبل.

من بين الملاحظين الموجودين بالجزائر والقريبيين من هذه الطبقة المثقفة هناك المستغرب - المستشرق "جورج مارسى" (Georges Marçais) الذي كان مديرا للمدرسة العليا بتلمسان حيث اعتبر النخبة "أولئك الجزائريين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية والذين يعرفون عن مؤلفي العصر الإسلامي الذهبي وعن كتاب التراث الفرنسي"⁽¹⁰⁾. أي تلك الجماعة التي درست كلا من الحضارة العربية والفرنسية.

وإذا حاولنا الاستناد في الطرح على هذه الازدواجية في الثقافة واللغة عند هؤلاء المثقفين، فإننا نلح من ناحية أخرى على "مفهوم" الوعي (conscience) الاجتماعي والسياسي الذي اتسمت به هذه الطبقة، وبمرور الزمن حيث التعبئة، أو الشعور بدورهم الهام الذي يلعبونه في شؤون بلادهم، وبصفتهم "أنتيليغانسيا" (Intelligencia) بالمفهوم الروسي أثناء تلك الفترة) يواجهون مشاكل أمتهم الكبيرة.

وان تتبعنا تاريخيا حقيقة بروز هذه الطبقة المثقفة، للاحظنا أنها كانت نتاج الأسلوب التعليمي-المفروض فرنسيا- ووسط البيئة الثقافية التي احتضنته منذ منتصف القرن التاسع عشر والذي أدى نتيجة السياقات التكوينية إلى نوعين من المثقفين؛ مثقفي المدرسة الفرنسية ومثقفي المدارس والمعاهد القرآنية والجامعات الإسلامية. وحتى إذا حصل هذا الانقسام حقيقة فلا يجب أن ينظر إليه بصفة تفرع ثنائي، إذ يجب الأخذ في الاعتبار واقع المثقفين المتخرجين من المدارس الإسلامية الجزائرية -تلمسان، قسنطينة والعاصمة- أولئك الذين يشكلون عملية اتصال بين النوعين⁽¹¹⁾ السابقين. وحتى مسألة الانقسام اللغوي عند المتفرنسين والعربيين يجب تفادي طرحها داخل علاقة معارضة، بل فهمها في سياق منافسة-تكاملية⁽¹²⁾.

فمن المسلم به أن اللغة الفرنسية هي لغة مؤسسات النظام الاستعماري والمهيمنة داخل الأوساط السياسية والاقتصادية مقارنة إلى اللغة العربية؛ إلا أن دور اللغة العربية لم يختلف رغم تقلصه في المحيط الرسمي الاستعماري. فمن جهة هناك ثبات واستمرارية هذه اللغة داخل بيئتها الثقافية العربية الإسلامية، ومن جهة أخرى فإنها استطاعت مواكبة التغيرات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي حصلت طوال الفترة الاستعمارية الممتدة خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن الحالي (إن في مجال التكوين التقليدي والترجمة والإدارة)، ومواكبة تيار النهضة والحدثة المسجلة في المغرب العربي (الصحافة والخطابة، العرائض، الأندية والجمعيات) اقتداء بما يحصل في المشرق العربي. وكما أسلفنا ضمن سياق "التطور الاجتماعي" و"الجذور التاريخية الثقافية" بالنسبة للقطاع الوهراني وبالتوازي مع مناطق البلاد الأخرى هناك استمرارية لدور الزوايا والمدارس القرآنية والمعاهد الإسلامية خلال هذه الفترة كمؤسسات تعليمية؛ إذ أن المتخرجين من هذه المؤسسات سوف يسلكون اختيارات عديدة مثل انكبابهم

على فتح المدارس القرآنية والتحاقهم بالعدالة والإدارة كأعوان ومترجمين وغيره. إن نموذج المثقفين الذين تقلدوا مناصب "عدول" و"باش-عدول" وأعوان-أهالي و"خوجا" وغيرها من المناصب السياسية والاجتماعية بواسطة هذه اللغة يفيد ببقاء وسمود اللغة العربية كأداة عمل، ونموذج خريجي زوايا منطقة مستغانم -وليس الفريد- جدير بالاهتمام خلال هذه الفترة⁽¹³⁾.

في الغالب كان التعليم السائد والمنتشر في ربوع المناطق الجزائرية هو التعليم العربي التقليدي الذي استمر في تأدية وظائفه. فحسب إحصاء 1871 كان عدد الزوايا بمؤسساتها الدينية والثقافية تقترب من الألفي زاوية تشرف على تعليم وتثقيف حوالي 28000 تلميذ من السكان⁽¹⁴⁾. كما كانت هذه المدارس التقليدية تكون وتحضر الطلاب للالتحاق في المستقبل بالمعاهد المشهورة مثل جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في مدينة فاس، وأحيانا أخرى إلى جوامع المشرق العربي في مصر وسوريا والحجاز.

إن المؤسسات المذكورة استطاعت المحافظة على اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في مستوى محترم متحدية بذلك الإجراءات التعسفية الاستعمارية ضدها. ولا يمكن أن نقلل من الدور الحيوي لهذه المدارس القرآنية والزوايا في نشر الثقافة والعلم في فترات صعبة، تميزت بانعدام وجود تنظيم رسمي خاص بتعليم الجزائريين، صحبة قصور السلطات الفرنسية في القيام بواجبها "الحضاري". ففي 1891 أقرت لجنة مجلس الشيوخ التي زارت الجزائر "أن التعليم المقدم حاليا في الجزائر متروك في أيدي الأهالي. والزوايا التي يدرس فيها القرآن وتفسيره هي المؤسسة التعليمية والتربوية الوحيدة في البلاد".

- دور "المدرسة الإسلامية" بتلمسان (Medersa de Tlemcen)

عندما نحاول ملامسة البيئة الثقافية التي حوت إلى حد ما عملية تكوين الناشئة الجزائرية داخل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حتى تبرز وتتطور في شكل شريحة مثقفة وخبوية، فمن الضروري التأكيد على الدور الذي لعبته المدرسة الإسلامية العليا بمدينة تلمسان (Medersa de Tlemcen) على غرار مدرستي قسنطينة والعاصمة انطلاقا من تاريخ تأسيسها. فهي المدرسة التي « نشأت في شهر جويلية 1848 "بالعباد" قرب مسجد سيدي بومدين -في البداية- بهدف تعليم الشباب وخصوصا تكوين "الدرارين" بالنسبة للقبائل [العربية]، تفاديا من توجههم إلى زوايا منطقة القبائل حيث التعليم المناوئ لنا »⁽¹⁵⁾، قبل أن تتأسس نهائيا بقرار رآسي في 30 سبتمبر

1850 حيث اختصت بالدراسات التعليمية الهادفة إلى تكوين وتخريج موظفين تحتاجهم الإدارة الاستعمارية كالمفتي والعدول والمترجمين ومدرسي اللغة العربية.

كانت هذه المدرسة الإسلامية ذات الطابع الفرنسي تدار تحت إشراف مسؤول فرنسي يتقن اللغة العربية ولا تخفي نوايا السلطات الفرنسية من وراء هذه السياسة إزاء المدارس الإسلامية الثلاث وبجعل هذه الأخيرة تحت رقابتها، وإبعاد السكان الجزائريين عن تأثيرات رجال الدين في الزوايا والمساجد والمدارس الحرة؛ ومن ناحية أخرى حاولت الإدارة الفرنسية بتأسيس هذا التعليم الإسلامي منافسة الزوايا الموجودة في المغرب وتونس، حتى ينتقص من قيمتها ووزنها العلمي بتخفيض عدد طلابها من الجزائريين الوافدين إليها وإبقائهم في الجزائر لمتابعة الدراسات العالية في المدارس الإسلامية الحكومية؛ وكان يشترط للالتحاق بهذه المدارس معرفة اللغة الفرنسية رغم أنها أنشأت للدراسات العربية الإسلامية، إلى جانب أنه لم يسمح لكل الجزائريين التعليم والتكوين بها وإنما فقط لأبناء العائلات الذين أظهروا ميلا لفرنسا واستطاعوا التقارب والتجاوب مع سلوكها ونظمها⁽¹⁶⁾. وفي إطار تنظيم المدارس الإسلامية صدر مرسوم يدعم قرار 1850 بفرض شهادة الكفاءة الإجبارية للطلاب حتى يلتحقوا بها بعد أن يكون قد تابعوا دراستهم الابتدائية في المدرسة العربية-الفرنسية (Ecole française-musulmane).

لم تستطع هذه المدارس الإسلامية أن تجلب إليها في المرحلة الأولى الأعداد الكافية من التلاميذ الجزائريين، وخاصة الخارجيين عن دائرة مكان وجودها. فكان يراعى فيهم كذلك موقفهم اتجاه السلطات الاستعمارية كتوفر شروط الأمانة والصدق والشعور الحسي إزاءها. ولإدخال التأثير الفرنسي في المدارس الإسلامية، صدر مرسوم 1865 الذي وضع إدارة ومراقبة وتفتيش هذه المدارس بيد أيدي السلطة الفرنسية، كما صدر من بعد ذلك مرسوم 16 فبراير 1876 في حق هذه المدارس ليعكس الطابع "السياسي والفرنسي لها، فحدد هدف المدارس العليا للقانون الإسلامي" في تكوين مرشحين وموظفين للأعمال القضائية والتعليمية والدينية إلى جانب بعض الوظائف التي هي بإمكان المسلمين غير المتجنسين شغلها بفضل مرسوم 21 أبريل 1866.

كما أعفى مرسوم 1876 حاكم المنطقة العسكرية من إدارة التعليم فيها لصالح مدير التربية مبقيا دوره للمراقبة السياسية والإدارية الرسمية. وقد أعتبر المرسوم المذكور والملحق بتنظيم 7 مارس 1877 هذه المدارس رسميا "مدارس عليا للقانون الإسلامي" تحتوي كل مدرسة على ستة أساتذة (ثلاثة مسلمين وثلاثة فرنسيين) يقومون بإعطاء تكوين كامل في هذه المدارس خلال ثلاث سنوات لطلاب داخليين لا تقل أعمارهم عن سبعة عشر سنة. ومن ناحية البرامج التي شملته هذه المدارس الإسلامية في مرحلتها التأسيسية (1848-1850) هناك "مواد التوحيد والفقه التشريعي والنحو واللغة"⁽¹⁷⁾؛ قبل أن تصقل ببرنامج أكثر كثافة وفقا للمادة الرابعة من مرسوم 1876 التي حوت تعليم اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا والحساب وبعض مبادئ القانون الفرنسي كالقانون المدني، والجنائي والإداري، بالإضافة إلى تعليم اللغة العربية والأدب العربي وعلم التوحيد والقانون الإسلامي.

وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى مرسوم 21 نوفمبر 1883 الذي أعفى حكام المقاطعات العسكرية من مراقبة المدارس الإسلامية وإرجاعها إلى الحكام المدنيين (Préfets)، رفقة نقل تسيير هذه المدارس والإشراف عليها من طرف مديرية التربية. أما مرسوم 23 مارس 1895 الذي جاء تنويفا للتقرير الذي قدمه عضو من مجلس الشيوخ، "كومب" (Combes) حول "وضعية تعليم الجزائريين" فقد أتى بعدة إصلاحات وحدد مدة الدراسة في هذه المدارس بأربع سنوات (عوض ثلاثة)؛ وتأسس إلى جانب ذلك قسم عالي "La Division Supérieure" تكون مدة الدراسة سنتان وهو ملحق بمدرسة العاصمة، أي ما يساوي في المجموع ست سنوات. وهذا القسم العالي مخصص فقط لعدد قليل من العناصر التي تثق فيها الإدارة الفرنسية، والذين تربطهم معها علاقات حسنة⁽¹⁸⁾، لأنهم سيتولون مناصب عالية ومهام في القضاء الإسلامي؛ ولا يلتحق بهذا القسم إلا الطلبة الحاصلون على "شهادة الدراسات" المتخرجون من المدارس الإسلامية الثلاث. كما تأسس بحكم هذا المرسوم صف جديد للصحة العامة وشعبة للتجارة لم يكتب لهما النجاح الكبير. ورجوعا إلى المنطقة الوهرانية—بعد هذا العرض التنظيمي للمدارس الإسلامية الثلاث— فإننا نرى دور المدرسة التلمسانية مهما للغاية سواء من الناحية الزمنية (1848-1912 وما بعد أيضا) في استقباله لوفود الطلبة وتخرجهم، أو فيما يتعلق بالجانب

التكويني لهم وهو التكوين الذي اقترب بيداغوجيا من التحديث في البرامج على الطريقة العصرية عبر المراحل التاريخية المعروفة.

إن المحلل للأرشيف والوثائق المتعلق بالمدرسة الإسلامية التلمسانية⁽¹⁹⁾ يلمس جوانب عديدة بالنسبة للبيئة الثقافية والعلمية التي كانت تسير عليها المدرسة منذ بداية عهدها وبالنسبة للعلاقة المنسوجة بينها -كمؤسسة علمية وتربوية- وبين الزوايا الدينية التي كانت تزودها بأفواج الطلبة لفترة طويلة، مثل زاوية أولاد سيدي الطيب "بعمي موسى"؛ وفي مرحلة ثالثة هناك علاقة عضوية وتكاملية بين أساتذة الشريعة واللغة والفقه الذين ينتمون إلى هذه المدرسة والمدرسين (Mouderres) في مساجد المدن الكبرى كتلمسان، وهران، معسكر، بلعباس ومستغانم بصفتهم مفتين وأئمة ومعلمين داخلها، يمكن إلحاقهم كأساتذة بالنسبة للمدرسة التلمسانية من الإدارة الحكومية أثناء شغور المناصب؛ وفي حالات عديدة يُعيّنون في القضاء الرسمي بصورة عادية أو كمستشارين ومساعدين في بعض المهام العليا، مثلما حدث مثلا "لسي بوعلي الغوتي بن محمد"، المدرس بمسجد سيدي بلعباس عندما انتدب إلى مدينة طنجة المغربية ليساهم في تحرير جريدة "السعادة"⁽²⁰⁾ لستة أشهر ومنذ مايو 1904.

فهذه المدرسة التي عرفت كبار العلماء في الشريعة واللغة والنحو والتوحيد في الجهة الغربية من الوطن أمثال سي أحمد بن طالب (من تلمسان) ومولاي الطيب ولد بن عزة (من لحناية) وسي محمد ولد عبد الله (من العباد) وسي الطاهر بن غراس (قاضي ترارة) وسي محمد بن مرابط (من تلمسان) مع نهاية الربيعينيات وخلال الخمسينيات؛ وهناك الحاج محمد بن عبد الله الرقاي، صاحب إجازة في البلاغة من جامعة الأزهر وسي محمد بن ويس وسي محمد بن الشيخ وسي الحبيب بن العربي وسي محمد بن أحمد وسي الحاج محمد بن بوطالب وسي ميلود بن نميش وسي أحمد بن البشير (من معسكر) -هذا الذي تتلمذ على يد الشيخ بوراس ولد الشيخ بوطالب بمازونة- وسي أحمد بن حمزة وسي طاهر بن حسان، وكلهم أساتذة امتد نشاطهم خلال عقدي الستينيات والسبعينيات، مع البغداد بن يوسف والهاشمي بن أحمد -مع الثمانينيات- وصولا إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع أبي بكر عبد السلام بن شعيب.

ونعتقد أن شريحة واسعة ورئيسية من الطلبة المتخرجين من هذه المدرسة استطاعت أن تحتل مكانتها في المجتمع الجزائري كوسيط داخل المؤسسات الاجتماعية والدينية والثقافية كإداريين وقضاة ومفتين ومدرسين وغير ذلك⁽²¹⁾. وإذا كانت أفواج الطلبة التي التحقت بالمدرسة حكرا على مدينة تلمسان في بداية عهدها (1848-1860)، فإن فئات أخرى من مختلف مناطق القطاع الوهراني الساحلية والداخلية -من الزوايا وطلبة الأقسام الملحقة بالمساجد الكبرى في العمالة- أصبحت تتنافس على مقاعدها (1860-1880) قبل أن تمنح أولوية القبول داخلها للتلامذة الجزائريين المتحصلين على شهادات المدارس الفرنسية، أي أولئك المتخرجين من المدارس العربية الفرنسية (Ecole Arabe Française) خصوصا بعد مراسم الإصلاحات التربوية لسنة 1877 وسنة 1895.

(جدول رقم 1)

معدل الطلبة المسجلين بالمدرسة الإسلامية بتلمسان			
المعدل	الفترات التاريخية	المعدل	الفترات التاريخية
44	1887 – 1883	25	1852 – 1848
26	1892 – 1888	35	1857 – 1853
38	1897 – 1893	51	1862 – 1857
33	1902 – 1898	60	1867 – 1863
47	1907 – 1903	55	1872 – 1868
56	1912 – 1808	53	1877 – 1873
		50	1882 – 1878

وفي إطار حركة التنظيمات التي شهدتها المدارس الإسلامية، صدر قرار 18 مارس 1905 لينظم سير هذه المدارس، وهو القرار الذي أصدره الحاكم العام جوناو محاولا تشجيع الدراسات العربية الإسلامية، التي تعتبر جزءا من سياسته الأهلية و «أن المصلحة تتطلب ذلك للاستفادة من طاقات الجزائريين»⁽²²⁾. فقد حاول الحاكم العام الرفع من مستوى تعليم اللغة العربية وتأسيس بعض المكتبات في المدن الكبرى لتسهيل مهمة تكوين مثقفين جدد، كما أعيد النظر في مستوى الأساتذة. ومنذ 1905 بدأ العمل بالإجراء الجديد المتمثل في أن يكون أساتذة هذه المدارس أنفسهم متخرجين من القسم

العالي بمدرسة العاصمة. أما فيما يتعلق باللغة الفرنسية والمواد المدرسة بجانبها بنفس اللغة، فإن الأساتذة المشرفين على تعليمها عليهم أن يكونوا حاصلين على شهادة البكالوريا ويحملون دبلوم اللغة العربية وحاملين لشهادة "أهلية التعليم" من مدارس المعلمين. وكان من بين هؤلاء الفرنسيين الذين أشرفوا على التدريس في مدرسة تلمسان كل من المترجمين العسكريين بيلار (Pilard) وريكات (Ricat) وأساتذة اللغة الفرنسية ديسيو (Decieux) وديستانغ (Destaing) وريندامك (Rindemk) وإدمان دوتي (E.Doutté) ووليام مارسي (W.Marçais) والفريد بال (A.Bel) وغيرهم.

كان الفريد بال وهو مدير للمدرسة التلمسانية يرى من خلال تلك الإجراءات التنظيمية الجديدة ذات الطابع الفرنسي إمكانية تكوين « نخبة مثقفة من هؤلاء المتخرجين من المدارس الإسلامية الحكومية، أي شريحة نخبوية وقيادية بعيدة عن كل تفكير أرستقراطي أو أية مسابقات شبه دينية حمقاء »⁽²³⁾. وأكثر من ذلك، فقد تركز العمل على المواضيع الفرنسية في البرامج التعليمية لهذه المدارس، لأن الهدف الأساسي عند الإدارة الاستعمارية كان يكمن في ترجيح كفة الأفكار الفرنسية وتطبيق الطرق التعليمية الفرنسية لموازنة التعليم العربي الإسلامي أي التعليم الديني بصورة أخص.

ونخلص في النهاية عن المدرسة التلمسانية أن تلمسان كانت إلى ما بعد 1900 تقوم بدور هام "كعاصمة دينية في الجزائر"⁽²⁴⁾، والتي استطاعت أن تكون دفعات من الطلبة ابتداء من 1848 متشبعة بالثقافة العربية الإسلامية، وملمة بالعلوم واللغة ومبادئ القانون "المدني" و"الجنائي" و"الإداري" الفرنسي. وبازدواجية ثقافة ولغة هؤلاء الطلبة فهم مطلعون بالطبع على الحالة السيئة التي يوجد عليها الجزائريون -نتيجة السياسة الاستيطانية الاستعمارية منذ 1830- اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا. وهم على دراية رفيقة زملائهم المتنورين من "صف المعلمين" وبعض "المثقفين التقليديين" كأبي بكر عبد السلام بن شعيب وأحمد بن رحال الندرومي بما كان يجري رسميا في الجزائر من "تقصي البعثات البرلمانية" في المسائل التي تخص المجتمع الجزائري كما حصل مع "بعثة الثلاثة والعشرين" لجول فيري (Jules Ferry) سنة 1892، وبعثة 1900 وغيرها بدعوى ضرورة القيام بالإصلاحات في الجزائر.

ونتيجة هذا النشاط الثقافي-السياسي كله وبروز هذه النواة من المثقفين الواعين من داخل البرجوازية الإدارية الجزائرية، رفقة بعض المدرسين ممن أفرزتهم البرجوازية الصغيرة مطلع القرن الجديد، هناك تبلور تيار سياسي مبكر، لخوض غمار "التحديث" والإلمام بمشاكل المجتمع و"عجزة" عندما استطاعت جماعة من النخبة تأسيس لسان لها بوهران، متمثلا في البداية في صحيفة "المصباح" (El-Misbah) برئاسة المدرس العربي فخار خلال شهر جوان 1904؛ رفقة بعض المدرسين والإداريين الجزائريين من القطاع الوهراني أمثال "حمدان بوركايب" و"غمري حميدة" و"ابن منصور الصنهاجي" وأمثال الذين كانوا يوقعون مقالاتهم وتدخلاتهم بأسماء مستعارة مثل "الحاج" و"ابن خلدون" و"علاء الدين" (Aladin) و"ميمون".

استطاع هذا الشباب النخبوي الواعي أن يعزز نضاله الوطني ابتداء من 1911 بتأسيس صحيفة ثانية وباللغتين أيضا وهي "الحق الوهراني" (1911-1912). وهو المنبر الذي تحسس أكثر إلى مشاكل ومصير الطبقة الشعبية، وتميز بخطه الوطني ومواقفه "الصادقة" في بعض القضايا المصرية للمجتمع الجزائري مثل "التجنيد العسكري الإجباري" و"الحقوق السياسية" وغيرها؛ حيث استطاع هذا المنبر أن ينال ثناء وارتياح بعض المفكرين والصحفيين في القطر الجزائري ببروزه في أصعب مقاطعة استيطانية مثلها القطاع الوهراني.

« تنبيه لبعض المختصرات الواردة في النص :

Bull (Bulletin) «	نش (نشرة) "...."
Travaux -Les- parlementaires	(أش.بر) الأشغال البرلمانية
Chambre -La- des députés	(أش.بر.غ.ن) الأشغال البرلمانية، غرفة النواب
Sénat -Le-	(أش.بر.غ.ش) الأشغال البرلمانية، غرفة الشيوخ
(A.F) Afrique (L') Française	(أ.ف) إفريقيا الفرنسية
(B.S.G.A.O) Bulletin (Le) de la Société Géographique et d'Archéologie de la Province d'Oran	(ن.ج.ج.أ.و) نشرة الجمعية الجغرافية والأثرية لعمالة وهران
(B.E.I) Bulletin de l'Enseignement Indigène	(ن.ت.أ) نشرة التعليم الأهلي

(أ.م.ب.ب.آكس) أرشيف ما وراء البحار بآكس أون (C.A.O.M) Centre des Archives d'Outre-mer à Aix-en Provence بروفانس (فرنسا)

(م.أ.و.و) مديرية الأرشيف بولاية وهران (D.A.W.O) Direction -La- des Archives de la Wilaya d'Oran

(م.م) المفوضيات المالية (D.F) Délégations (Les) Financières

(أ.م) الأرشيف المغربي (A.M) Archives -Les- Marocaines

الهوامش :

(¹) أنظر حلوش (عبد القادر)، السياسة التعليمية في الجزائر 1871-1914، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1975، طالع: « مفهوم النخبة » صص 253-256.

(²) حلوش (عبد القادر)، المرجع السابق، ص 263.

(³) COLLONA (F), les instituteurs algériens 1883-1939, ed OPU, Alger, 1975, p82.

(⁴) TURIN (Yvonne), Affrontement culturels dans l'Algérie coloniale, Ecoles, Médecines, Religions, 1830-1880, Edit. Marpéro, Paris, 1971, p 73.

(⁵) Idem, p73.

(⁶) COLLONA (F), op.cit, p80.

(⁷) الميلي محمد، "المسألة الثقافية"، ضمن المستقبل العربي، عدد 45، ص 39.

(⁸) سعد اله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، بيروت، مارس، 1969، ط 1، ص 194.

(⁹) الميلي (م)، نفس المرجع أعلاه. إننا نشاطر هذا التعريف لما سنطرحه لاحقاً - من قضايا اجتماعية وثقافية وسياسية بالنسبة لدور هذه الشريحة المثقفة.

(¹⁰) سعد الله (أ)، المرجع السابق، ص 185.

(¹¹) DJEGLOUL (A.E.K), « la formation des lettrés modernes algériens 1880-1930 », in travaux du laboratoire d'histoire et d'anthropologie sociale et culturelle (C.R.A.S.C) Oran, O.P.U, Alger 1988, n°04, pp7-9.

(¹²) DJEGLOUL (A.E.K), Op.cit.

(¹³) إننا نشاطر رأي جغلول عبد القادر عندما يثير ومهتما ، "بأن العملية الحديثة لإعادة بنية الجهاز التربوي القديم، مع أنها غير معروفة ولم تنل حقها [من البحث والاهتمام] كانت تسير بالتوازي مع إنغراس جهاز التعليم الكولونيالي مع نهاية القرن [التاسع عشر] والحرب العالمية الأولى"، المرجع السابق، ص 7. وهو ما تفيد به بعض مضامين محورنا "البيئة الثقافية في الغرب الجزائري" من جهة، وتسير مع هذا الانشغال الأكاديمي

(¹⁴) LEROY-Beaulieu (F), L'Algérie et la Tunisie, Paris, 2^{ème} édition 1897, p251.

(¹⁵) A.N.O.M, cart 1J82 « Rapport sur l'école supérieure de Tlemcen ».

(¹⁶) طالع مضامين أ.م.ب.آكس ، (A.N.O.M), cart 1S.24

(¹⁷) A.N.O.M, cart 1J82.Idem.

(¹⁸) "نشرة التعليم الأهلي"، رقم 13 ، ص 15 (Bulletin de l'Enseignement Indigène).

(¹⁹) منها مثلاً أرشيف ما وراء البحار بآكس أون بروفانس مع محفوظات رصيد "الحكومة العامة" تحت أرقام:

1.S24, 2.S24, 20J60 et 1J83...

(²⁰) م.أ.و.و.علبة 4471، « عرض عن وضع الأهالي السياسي »، نوفمبر 1904.

(²¹) من ذا ضرورة بروز أبحاث جامعية عن هذه "المدرسة-المؤسسة" بالنسبة للتاريخ الجزائري داخل الحقبة الكولونيالية.

(²²) حلوش (ع)، المرجع السابق، ص 227.

(²³) MASSE (H), « les études arabes en Algérie (1830-1930) », in Revue Africaine, n°74 1933, p232.

(²⁴) AGERON (Ch.R), « le mouvement Jeune Algérien de 1900 à 1923 », in Etudes maghrébines, mélange Charles André Julien, Paris P.U.F1964, pp217-243.